# مشاهير مؤرخي سيرة رسول الله

للدكتور إبراهيم أحمد العدوى

نشأ التاريخ الإسلامى نشأة مستقلة ، ولها طابعها الخاص ، ومقوماتها الذاتية الواضحة . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن طليعة المؤرخين المسلمين لم يتأثروا فى تدوينهم للأحداث بما كان متبعاً عند رجال التاريخ القدامى من اليونان والرومان ، أو غيرهم من مؤرخى الأمم التى جاورت الدولة الإسلامية عند نموها واتساعها . فالمؤرخون المسلمون الأوائل كانت لهم نظرتهم الخاصة بهم فى تدوين الأحداث وعرضها ، ثم طريقة التبويب وعرض الموضوعات . وصارت نشأة التاريخ الإسلامى بذلك نشأة صادقة ، وتعبر تعبيراً حسناً عن المجتمع الإسلامى ، وتطوره ، واتساع أهدافه ، وترامى آماله .

ودعم هذه النشأة الاستقلالية للتاريخ الإسلامى أن القائمين بأمر تدوينه لم يكونوا فى أوائل أمرهم من الرجال الذين عاشوا فى كنف الأمراء ، أو ممن عهدت إليهم الدولة بجمع الوثائق والأسانيد ، ثم عرضها بما يتفق ووجهة نظر السلطات الحاكمة ، وإنما عاش أولئك المؤرخون عيشة بسيطة ، مبتعدين عن زخارف الحياة وبريقها ، قانعين بالقليل من أسباب العيش ، قاصرين جهودهم على تتبع أحداث ماضيهم وشرح ما امتلأت به من نزعات مذهبية وعقائد سياسية وصور اجتماعية ، مستهدفين بذلك تجنيب مواطنيهم العثرات وأخطاء السلف ، وموضحين لهم النماذج العالية الجديرة بالدرس والاتباع . وجاءت مدونات المؤرخين المسلمين بذلك صورة نزيهة للمجتمع الذى عاشوا فيه ، وتعبيراً صادقاً عن مشاعرهم وخبراتهم .

وساعد على نزاهة مصنفات المؤرخين المسلمين الأول أنها نشأت فى مهاد الدين ، وشبت وترعرعت لخدمة مطالب الدين كذلك . فالتاريخ الإسلامى امتزج فى أول أمره برواية الحديث وتفسير القرآن الكريم ، وصار حدثاً مقترناً بهما فى كل مراحل تطورها . ذلك أن المسلمين حين اشتغلوا بجمع القرآن وتفسيره ، واستقصاء الحديث احتاجوا إلى تحقيق المناسبات التى نزلت فيها الآيات والمشاهد التى وردت فيها

الأحاديث ، وتحروا فى ذلك منتهى الدقة والأمانة ، لأن القرآن الكريم حوى الأحكام والشرائع والاخبار التى تهدى الناس سواء السبيل ، فضلا عن أن الأحاديث المأثورة تعين على توضيح ما يواجه الناس من مشا كلهم وتساعدهم على حلها .

واستلزمت هذه الدراسات الدينية أن يكون النبى الكريم وسيرته أول موضوع يتناوله التاريخ الإسلامى ، لأن تفهم حياة الرسول الكريم وجهاده أمر جوهرى يفيد المجتمع الإسلامى فى السير على هدى السنة والاسترشاد بتعاليمها . وكان تاريخ النبى صلى الله عليه وسلم داخلا فيما يروى من الأحاديث ، حيث دأب المحدثون من علماء المدينة المنورة فى أول الأمر على جمع كل ما يصل إلى علمهم من أحاديث دون ترتيب ، ولكن متوخين الدقة التامة فى الحصول على تلك الأحاديث . ولما رتبت تلك الأحاديث فى الأبواب التى تشمل المواضيع المختلفة ، جمع منها ما يتعلق بسيرة الرسول الكريم فى أبواب مستقلة ، وكان ذلك إيذاناً بمولد التاريخ الإسلامى .

وكان أشهر تلك الأبواب ما يسمى باسم « السيرة والمغازى » ، لأن المغازى ولو أنه يقصد بها الغزو إلا أنها لم تلبث أن صارت قاصرة على جهاد النبى الكريم ومرادفة لسيرته السامية . وكان السبب فى اشتداد الاهتمام بسيرة الرسول الكريم فى القرنين الأولين للهجرة هو الإفادة من أقوال النبى فى التشريع وفى التنظيم الإدارى للدولة الإسلامية الفتية . ثم إن مغازى الرسول ، ومغازى أصحابه ، وهى التى عرفت باسم « السرايا » ، لأن الرسول لم يشترك فيها ، صارت مصدر اعتزاز للمسلمين ، ومواضيع محببة فى مجالس السمر . وفضلا عن ذلك غدت المشاركة فى مغازى الرسول الكريم وفى السرايا التى بعث بها إلى مختلف الجهات عاملا هاماً فى رفع المنزلة الاجتماعية ، وعنصراً هاماً فى تحديد العطاء فى الديوان ، ولا سيما فى تلك الأيام الأولى من حياة الدولة الإسلامية .

وتأسست فى مدينة الرسول الكريم فى ذلك الوقت ، أى فى أواخر أيام الدولة الأموية أول مدرسة للتاريخ الإسلامى . ثم أن هـذه المدرسة حفلت بطائفة من الأساتذة الأعلام ، أسهموا خالفاً عن سالف فى وضع الحجر الأساسى للدراسات التاريخية ، ثم إعلاء صرحها فى روح من التفانى والتعاون الصادق . واختص نشاط هذه المدرسة بالتأليف فى « المغازى » ، أى فى سيرة رسول الله . وبدأ هذا النشاط

فى جهود مشتركة ، تمثلت فى حلقات للدراسة ، وأحاطت كل حلقة بأستاذ . ثم إن الدراسة فى هذه المدرسة كانت مفتوحة لمن يريد ، والرواية تسير فى سلسلة منتظمة ، بحيث تسهل انتقال سيرة الرسول أو مغازيه جيلا عن جيل ، ومن شخص إلى شخص ، على شكل محاضرات عادة .

وأول من عرف بالتأليف فى هذا الميدان الجديد من المغازى والسيرة أربعة هم : أبان بن الخليفة عثمان بن عفان (ت بين ٩٥ — ١٠٥ هـ/٧١٣ — ٧٣٣م ) ، وعروة بن الزبير ( ت ٩٤ هـ/٧١٢م ) ، وشرحبيل بن سعد ( ت ١٢٣هـ/٧٤٠م ) ، ووهب بن منبه ( ت ١١٠ هـ/٧٢٨م ) . ويقف على رأس هذه الطبقة الأولى من مؤلفى السيرة عروة بن الزبير . ويرجع السبب فى ذلك إلى مكانته الاجتماعية العالية التى تمتع بها ، والتى أتاحت له الحصول على أكبر قدر من المعلومات عن سيرة الرسول الكريم .

وينتسب عروة إلى أسرة عربية عريقة النسب ، كان لأفرادها صلة وثيقة بحياة الرسول الكريم . فأبوه الزبير بن العوام ، وأمه أسماء بنت أبى بكر ، وخالته السيدة عائشة ، وجدته خديجة بنت خويلد ، وأخوه عبد الله بن الزبير . وقد أتاحت صلة القربى السالف ذكرها لعروة الفرصة لجمع أعظم قدر من الروايات عن الرسول الكريم ، وبخاصة عن أدق التفاصيل . فقال عمر بن عبد العزيز عنه : « ما أجد أعلم من عروة » . وقد قضى عروة وقتاً كبيراً من حياته فى الدراسة والتدريس كذلك ، وصار له طلبة ينقلون عنه العلم ، كما صار مقرباً إلى البيت الأموى الحاكم ، ويزوده بالمعلومات التاريخية الهامة .

واشتهر عروة ، إلى جانب روايته أخبار الرسول الكريم ، بوضع بعض المعلومات كتابة ، وبخاصة فى الرسائل التى كان يبعث بها إلى أبناء البيت الأموى . وقد انتقلت دراسات عروة جيلا عن جيل ، واستفاد منها كثير من المؤرخين ، واحتفظوا بها فى كتبهم . ومن أمثلة ذلك ما جاء فى كتب ابن اسحق والواقدى والطبرى . وصارت كتابات عروة التى تناقلها أولئك المؤرخون هى أقدم دراسة لحياة النبى ، وعبارة عن خطوط أولية لمعالجة موضوع السيرة النبوية ، فضلا عن أنها صارت نماذج تحتذى ، عند من جاء بعده من مؤرخى سيرة رسول الله .

وتناول عروة فى دراساته معالجة المواضيع التى تتصل بسيرة الرسول الكريم ، من حيث : بدء الوحى وبداية الدعوة ، وهجرة نفر من المسلمين إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة . ثم تناول بعد ذلك أعمال الرسول الكريم طوال إقامته بالمدينة ، ومن أهمها الغزوات والسرايا ، مثل سرية عبد الله بن جحش ، وغزوة بدر الكبرى ، وغزوة قينقاع ، والخندق ، وغزوة بنى قريظة ، وصلح الحديبية ، وحملة موته ، وفتح مكة ، وغزوة حنين ، وغزوة الطائف ، وبعض مراسلات الرسول ، وأخباره صلى الله عليه وسلم فى أواخر أيامه .

وترجع أهمية تلك الدراسات التى قام بها عروة إلى الثقة الكبرى فى رواتها ، فضلا عن أسلوبه فى تدوينها ، وهو الأسلوب الذى صار مثالا يحتذى عند الناقلين عنه . إذ كان أسلوب عروة سلساً بعيداً عن المبالغة ، مملوء بالحيوية ، ودأب على التمهيد للحادثة التى يتناولها بمقدمة تحدد موضعها التاريخى ، وتفيد القارىء فى الاحتفاظ بوحدة الموضوع ، والتسلسل كذلك . فعندما تناول الهجرة إلى الحبشة مثلا ، مهد لذلك ببيان تطور العلاقات بين المسلمين وقريش منذ بداية الدعوة ، وما أعقب ذلك من تطورات ، موضحاً السبب الذى حدا بالرسول الكريم إلى اختيار بلاد الحبشة بالذات ، مما يضفى على دراسته حيوية وقوة .

ومن ذلك أن عروة بدأ هذه الحادثة قائلا عن قريش : « لم يبعدوا عنه ( أى الرسول ) أول ما دعاهم ، وكادوا يسمعون له ، حتى ذكر طواغيهم .... » وأن قريشاً أخذت عندئذ تضطهد المسلمين . وأشار عروة إلى محاولة قريش العمل على أن يفتنوا من تبع الرسول من المسلمين ، « فكانت فتنة شديدة الزلزال ... فافتتن من افتتن وسلم الله من شاء » . ولما رأى الرسول ما حل بأصحابه أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة . وذكر عروة السبب فى اختيار الرسول للحبشة قائلا : إنها كانت مركزاً من مراكز تجارة قريش ، وهاجر إليها لذلك كثير من المسلمين .

وعلى هذا النهج الواضح سار عروة فى سرد السيرة ، واهتم فى نفس الوقت بالكثير من التفاصيل التى تساعد على فهم تلك السيرة العطرة . فاستشهد بالآيات القرآنية التى تتصل بالأحداث التى يرويها ، وبيان الظروف التاريخية لتلك الآيات . فأشار إلى الآية الكريمة التى تبين هجرة نفر من النساء بعد أن صلح الحديبية من

مكة إلى المدينة ، لإعتناقهم الإسلام ، وموقف الرسول الكريم منهن . ويعتبر عروة بذلك مثلا مبكراً من أمثلة المؤرخين المسلمين الذين أجادوا الجمع بين التفسير والتاريخ وهو الأمر الذى سيبلغ ذروته عند الطبرى فيما بعد .

ومن الأشياء الطريفة التى تكشف عن دقة عروة فى سرد السيرة ، أنه عمد إلى بيان الحالة النفسية للمسلمين ، وبخاصة فى الأحداث الكبرى ، مثل غزوة بدر . واستطاع عروة أن يجعل من أعماله وحدة متكاملة ، تشهد له بأن يحمل عن جدارة لقب أشهر مشاهير الطبقة الأولى من مؤرخى سيرة رسول الله .

ونالت دراسات عروة وأقرانه من مؤرخى السيرة اهتمام رجال الطبقة الثانية ، ممن اشتغلوا فى هـذا الميدان المبكر من التاريخ الإسلامى . ومن رجال تلك الطبقة الثانية عاصم بن عمرو بن قتادة ( ت ١٢٠ هـ/٧٣٧م ) ، وعبد الله بن أبى بكر بن حزم ( ت ١٣٠هـ/٧٥٢م ) ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ( ت ١٢٤هـ/٧٤١م ) . ويعتبر الزهرى من أشهر رجال الطبقة الثانية ، وحلقة الربط بينهما وبين رجال الطبقة الأولى من مؤرخى سيرة رسول الله .

وساعد الزهرى على أن ينال تلك المكانة العالية أنه تتلمذ على عروة بن الزبير ، واستفاد فائدة عظيمة من أعماله . وكان الزهرى ينظر إلى عروة نظرة احترام وتقدير ، ويراه بحراً لا ينزف . ثم تفوق الزهرى على أستـاذه بقوة الذاكرة ، وتدوين ما يسمعه على « الألواح » و « الصحف » . وروت المراجع أشياء طريفة عن الزهرى ، منها أنه كان يحرص على شرب العسل ليقوى به الذاكرة ، ويدعم تلك الذاكرة بالتدوين . ورأى المعاصرون أن حرص الزهرى على التدوين هو الذى أعطى لدراسته الأهمية والقوة والأفضلية على معاصريه من رجال الطبقة الثانية .

واعتمد الزهرى على مقابلة كبار رجال العلم من معاصريه ، وكذلك النساء ، وجمع ما لديهم من معلومات عن سيرة الرسول . فكان يتردد على المجالس ، ويزور الناس الثقاة فى بيوتهم ، ويتحرى منهم عن الروايات الصادقة . وقد اعترف أحد المعاصرين بتفوق الزهرى عليهم ، موضحاً سبب ذلك قائلا : « كان ( أى الزهرى ) يأتى المجالس من صدورها ولا يأتيها من خلفها ، ولا يبقى فى المجلس شاباً إلا سأله ، ولا كهلا إلا سأله ، ثم يأتى الدار من دور الأنصار فلا يبقى شاباً ولا كهلا ولا عجوزاً ولا كهلة إلا سألهم ، حتى يحاور ربات الحجال » .

واستطاع الزهرى أن يحصل على أكبر قدر من الروايات عن سيرة الرسول الكريم ، وشهد له المعاصرون ، ومن استفاد من دراساته بالعلم الواسع فى هذا الميدان . وقد جمع الطبرى تلك الأقوال التى تركها العلماء عن سعة معلومات الزهرى قائلا : « كان محمد بن مسلم الزهرى مقدماً فى العلم بمغازى رسول الله (ص) وأخبار قريش والأنصار ، رواية لأخبار رسول الله (ص) وأصحابه » . وحفظ الزهرى بذلك ثمار الدراسات التى قام بها رجال الطبقة الأولى من مؤرخى السيرة ، وبخاصة عروة بن الزبير ، ثم بدأ يعمل على السير بتلك الدراسات خطوات إلى الأمام كان لها أكبر الأثر فى تنمية أصول الأبحاث الأولى فى التاريخ الإسلامى .

وتتضح أهمية الدور الذى قام به الزهرى فى عاملين هامين : أولهما أنه نقل السيرة من الخطوط العريضة التى اتضحت عند رجال الطبقة الأولى إلى المنهج المحدد المعالم ، سواء من حيث العرض أو أسلوب التدوين . أما من حيث العرض فقد بدأ الزهرى أعماله بتقسيم سيرة الرسول الكريم ثلاثة أقسام رئيسية هى : حياة الرسول قبل البعثة ، مع تمهيد طويل لذلك بدراسة عامة لما قبل الإسلام . وتناول فى القسم الثانى حياة الرسول الكريم فى مكة ، وأخيراً أوضح فى القسم الثالث نشاط الرسول الكريم بعد الهجرة إلى المدينة .

وأهمية هذا التقسيم الذى وضعه الزهرى أنه صار النموذج فيما بعد لكثير من كتب السيرة التى وصلتنا ، والتى ما زلنا نطالعها حتى الوقت الحاضر . هذا إلى أن التفاصيل التى أوردها الزهرى داخل كل قسم من أقسامه الثلاث صارت بدورها عناصر يعمل الخلف على توضيحها أو الإضافة إليها بما يجعل سيرة الرسول الكريم أكثر وضوحاً ، وأعم فائدة للناس . وكان منهج الزهرى فى تلك السبيل مبتكراً ، يشهد له بالتفوق والاطلاع الواسع ، والقدرة على العمل المتواصل . ويكفى إلقاء نظرة سريعة على ما وصلنا من أعمال الزهرى فى هذا الميدان لنعرف الدور الهام الذى أسهم به هذا المؤرخ فى بناء الدراسات التاريخية المبكرة فى الدولة الإسلامية ، وما قدمه من أجل الخدمات لأجيال الباحثين فى التاريخ الإسلامى .

تناول الزهرى فى القسم الأول من دراساته الحديث عن يوم خلق آدم ، ويوم دخوله الجنة وخروجه منها ، ثم هبوطه إلى الأرض ، حتى بعث الله الرسول الكريم .

وتناول بعد ذلك ذكر نوح وذريته ، وأبناء إسماعيل ، وأخبار العرب . وتدرج من ذلك إلى أخبار الأنبياء ، حتى بدأ بجمع الروايات عن الرسول الكريم وأسرته قبل البعثة . وتعتبر هذه الدراسة محاولة جريئة من الزهرى لدراسة عصر ما قبل الإسلام ، وفى وقت يصعب فيه على أى باحث إذ ذاك التصدى لمثل هذا الموضوع الصعب الخطير .

وانتقل الزهرى بعد ذلك إلى دراسة حياة الرسول الكريم فى مكة ، منذ بدأ نزول الوحى ، وكيف عرف الرسول الكريم عن يقين أنه صاحب رسالة سامية عليه الجهر بها . وتابع الزهرى دراساته موضحاً أعمال الرسول لنشر الدعوة بين قريش ، وما لاقاه من متاعب ، وهجرة المسلمين إلى الحبشة ، ومقاطعة قريش لبنى هاشم وأخيراً ذكر بيعة العقبة ، التى أورد نصها ، مشيراً بذلك إلى انتشار الإسلام مبكراً فى المدينة .

وخص الزهرى القسم الثالث ببيان نشاط الرسول الكريم فى المدينة ، فشرح حديث الهجرة إلى يثرب ، ووصول الرسول إليها ، وبناء مسجد ، هناك . وأشار إلى موقف اليهود من الرسول . ثم تناول بعد ذلك السرايا والغزوات ، موضحاً نشاط المسلمين فيها ، وقيادة الرسول الكريم لنشر الدعوة الإسلامية . واختتم هذا القسم ببيان الرسل والسفارات التى بعث بها النبى إلى سائر الحكام ، وبخاصة خارج جزيرة العرب ، ثم ذكر مرض الرسول الكريم ووفاته .

وسار الزهرى طوال هذا العرض الهام وفق طريقة جعلت دراساته ممتعة بعيدة عن الملل أو الجفاف . ذلك أن الزهرى لم يتبع الطريقة التقليدية فى رواية أخباره وهى الطريقة التى تجعل لكل خبر سلسلة من الرواة ، وإنما اتبع طريقة الإسناد الجمعى . فكان الزهرى يجمع عدة روايات التى تتصل بالأحداث فى قصة سهلة متسلسلة ويبدأها بذكر رجال الأسانيد . وجاءت هذه الطريقة عنصراً هاماً فى بناء وحدة الموضوع وإتاحة الفرصة أمام القارىء ليتابع دراساته دون أن يقطع عليه تفكيره اعتراض الروايات ، ولكل رواية أسانيدها العدية . وهكذا وضع الزهرى فى دراساته لسيرة الرسول الكريم الأساس السليم لصرح التاريخ الإسلامى ، وإعطائه طابعه المميز ، المتحرر من قيود الحديث ومحاكاة المحدثين فى الإقتصار على جمع الروايات

رواية رواية ، لكل منها سلسلة أسانيدها ، والتى لا رابط بينها .

ونهض تلامذة الزهرى بالمنهج الذى وضعه لهم أستاذهم على خير وجه ، وحفظوا فى نفس الوقت المعلومات القيمة التى جمعها هذا الأستاذ الكبير ، بعد أن كادت تتعرض للضياع ، نتيجة اختفاء المدونات التى قام بها الزهرى نفسه . فعلى الرغم من اشتهار الزهرى بحب التدوين فلم تصلنا أعماله إلا عن طريق تلامذته ، والذين تهيأت لهم سبل الإطلاع على مدونات أستاذهم — قبل ضياعها — والنقل عنها نقلا حرفياً فى كثير من الأحوال .

ويكوّن تلاميذ الزهرى الطبقة الثالثة من مؤرخى سيرة رسول الله ، ومنهم موسى ابن عقبة ( ت ١٤١ هـ / ٧٥١ م ) ، ومعمر بن راشد ( ت ١٥٤هـ / ٧٦٥ م ) ومحمد ابن اسحق ( ت ١٥١هـ / ٧٦١ م ) . وأخذت دراسات سيرة رسول الله تأخذ طابعاً هاماً على يد رجال تلك الطبقة الثالثة ، ومن أهمها تفوق الأسلوب التاريخى فى التدوين على أسلوب جمع الأحاديث . وكان السبب فى ذلك كثرة المصادر التاريخية ، واشتداد الرغبة فى تنسيقها ، بما يوضح سيرة رسول الله . وكان من أهم هذه المصادر الجديدة هو الجماعات التى دخلت فى الإسلام من أهل الديانات السماوية الأخرى من المسيحيين واليهود ، فضلا عن ظهور طبقة القصاص ، والذين انتشروا فى الأمصار الإسلامية يلقون على الناس سير أبطال المسلمين ، وبخاصة أولئك الذين أسهموا فى غزوات الرسول الكريم .

واشتهر من رجال الطبقة الثالثة ، محمد بن اسحق ، ألذى أقدم فى جرأة نادرة على تنسيق هذه الموارد على اختلاف مشاربها ، ثم وضع لها تبويباً فريداً ، جعل سيرة الرسول الكريم تأخذ مكانها اللائقة بها فى ميدان دراسات التاريخ الإسلامى خاصة ، والدراسات التاريخية الإنسانية عامة . وساعد محمد بن إسحق على أداء هذه المهمة الكبرى ما توافر له من قدرة فائقة على التنقل والترحال ، رغبة فى جمع المعلومات التاريخية ، وما اتصف به من جلد وصبر على مواجهة النقاد وكبار الخصوم كذلك .

ونشأ محمد بن اسحق فى المدينة ، حيث يرجح أنه ولد سنة ٨٥ هـ ، ولقى كثيراً من علماء المدينة ، وأخذ عنهم الحديث . ثم رحل سنة ١١٥ هـ إلى الأسكندرية ، حيث

اتسعت آفاق علمه ، فاستمع إلى يزيد بن أبي حبيب ، الذى كان يعد من كبار الفقهاء والمحدثين فى مصر . ثم عاد بن إسحق إلى المدينة ، ومنها رحل إلى بغداد . وظل محمد بن إسحق موضوع التقدير وبخاصة فى الدراسات التاريخية المتعلقة بسيرة الرسول الـكريم . فقال الشافعى عن هذا المؤرخ : من أراد أن يتبحر فى المغازى فهو عيال على محمد بن إسحق» . وقد طلب الخليفة أبو جعفر المنصورمن ابن إسحق أن يؤلف لولى العهد المهدى كتاباً منذ خلق الله آدم إلى يومه .

وقد ألف ابن إسحق كتابه فى سيرة الرسول الـكريم ، وسماه « المغازى » . واشتمل هذا الـكتاب على ثلاثة أقسام كبرى ، وكل قسم منها يتناول جانباً هاماً من الدراسات التاريخية : القسم الأول هو « المبتدأ » ، والقسم الثانى هو « المبعث » والثالث هو « المغازى » وقد صارت هذه الأقسام الثلاث ينبوعاً غزيراً للباحثين فى سيرة الرسول الـكريم ، وبخاصة فى الفترات السابقة على ظهور الإسلام ، وصدر الإسلام كذلك .

وتناول ابن إسحق فى القسم الأول وهو « المبتدأ » التاريخ الجاهلى . وقسم هذا الموضوع بدوره إلى أربعة فصول ، رتبها حسب التطور التاريخى . فذكر فى الفصل الأول الوحى قبل الإسلام ، منذ خلق الله العالم حتى عيسى عليه السلام . واعتمد محمد بن إسحق فى هذا الفصل على القصص والأساطير ، وما كان هناك من روايات قصصية عند أحبار اليهود وكبار رجال المسيحية . وأشار أيضاً فى هذا الفصل إلى قبائل العرب البائدة ، مثل ثمود وعاد ، موضحاً الرسل الذين بعثوا إلى تلك القبائل .

ومن أمثلة الأساطير التى ذكرها محمد بن إسحق فى هذا الفصل مما جاء عن « خلق آدم » ، قال : « فيقال — والله أعلم — إنه لما انتهى الروح إلى رأسه ( رأس آدم ) عطس فقال : الحمد لله . ووقعت الملائكة حين استوى سجوداً له ، حفظاً لعهد الله الذى عهد إليهم ، وطاعة لأمره الذى أمرهم به . وقام عدو الله إبليس من بينهم ، فلم يسجد متكبراً متعظما ، بغياً وحسداً ، فقال له : « يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ؟ ... إلى قوله : لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين « قال ، فلما فرغ الله تعالى من إبليس ومعاتبته ، وأبى إلا المعصية ، أوقع الله تعالى عليه اللعنة ، وأخرجه » .

وتناول محمد بن إسحق فى الفصل الثانى من « المبتدأ » ، أى العصر الجاهلى تاريخ اليمن قبل الإسلام . ذلك أن الإشارات التى وردت فى القرآن الكريم عن « أصحاب الأخدود » دعى إلى دراسة إنتشار المسيحية واليهودية فى بلاد اليمن ، وتفسير الآيات التى تتعلق « بأصحاب الفيل » كذلك ، لمعرفة جيش أبرهة ، وموقف أجداد الرسول الكريم من حملة أصحاب الفيل على مكة .

ودرس ابن إسحق فى الفصل الثالث « من المبتدأ » القبائل العربية وعبادة الأصنام ، على حين خصص الفصل الرابع لأجداد النبى المباشرين وديانات مكة . وصار هذا العرض التاريخى يكون بذلك مدخلا لدراسة القسم الثانى من السيرة .

واشتمل القسم الثانى من دراسة ابن اسحق على « المبعث » وهو معالجة حياة الرسول الكريم فى مكة والهجرة . واعتمد ابن إسحق فى هذا الفصل على روايات علماء المدينة ، وكذلك على القصص التى رويت إذ ذاك عن حياة النبى . واستطاع ابن إسحق نتيجة سعة اطلاعه أن يضيف معلومات جديدة ودقيقة عن أسماء المؤمنين الأول بالرسول ، والذين هاجروا إلى الحبشة ، وقائمة بالمشتركين فى بيعتى العقبة . وعندما تحدث ابن أسحق عن الهجرة ذكر قائمة بأول من أسلم من الأنصار ، وقائمة بالمهاجرين والأنصار الذين آخى بينهم النبى . على أن أهم شىء ذكره ابن إسحق فيما يتعلق بالهجرة وما أعقبها ، هو تدوين الوثيقة المشهورة التى أبرمها النبى مع قبائل المدينة واليهود بها ، وهى الصحيفة التى غدت تكون « نظام مجتمع المدينة » ، فى صدر الإسلام .

وأفرد ابن إسحق القسم الثالث والكبير من كتابه « المغازى » ، والمقصود به ذكر تاريخ الرسول الكريم فى المدينة ، منذ بدأ القتال فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية . وتناول ابن إسحق الغزوات والسرايا ، التى خرجت من المدينة ، أو التى تعرضت لها تلك المدينة ، وجهاد الرسول والمؤمنين فى تلك الحروب . واستخدم ابن إسحق منهجاً محدوداً فى عرض المادة العلمية ، فكان يذكر ملخصاً للمحتويات الخاصة بالغزوة فى المقدمة مع بيان الرواة فى سلسلة الإسناد ، وأحياناً يختتم هذا العرض ببيان أخبار فردية يرى أنها ذات أهمية خاصة . وأوضح ابن إسحق دراساته بيان مفصل عن الأشخاص الذين استشهدوا فى القتال ، وما قدموه من ضروب الشجاعة .

ويلاحظ أن ابن اسحق لم يقتصر في جمع رواياته على علماء المدينة ، وإنما استند إلى روايات أهل الذمة الذين اعتنقوا الإسلام ، وكذلك بعض القصاص . وقد تعرض لنقد شديد من جانب علماء وفقهاء المدينة ، وعلى رأسهم الإمام مالك ، واشتدت الخصومة بينهما ، حتى اضطر ابن اسحق إلى مغادرة المدينة ، والاتجاه إلى العراق . ولقيت سيرة ابن إسحق اهتمام أهل العراق ، وكثر رواتها . ولم تصل تلك « السيرة » التي وضعها ابن اسحق كما دونها بنفسه ، وكما وضعها بتفاصيلها ، وإنما وصلتنا عن طريق تلامذته ، ومن أشهرهم ابن هشام ( ت ٢١٨ هـ / ٨١٣ م ) .

وعمد ابن هشام إلى تنقيح سيرة ابن اسحق ، واختصر بعض أجزائها ، وبخاصة الفصل الأول من القسم الأول الذي تناول فيه « المبتدأ » ، أو التاريخ الجاهلي . وشرح ابن هشام غرضه من تهذيب تلك السيرة قائلا : « وأنا إن شاء الله مبتدىء هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم ، ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من ولده وأولادهم لأصلابهم ، الأول من إسماعيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتارك بعض ما ذكره ابن اسحق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ذكر ولا نزل فيه من القرآن شيء ، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب ولا تفسيراً له ولا شاهداً عليه لما ذكرت من الاختصار ، وأشعاراً ذكرها لم أر أحد من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعضه يسوء بعض الناس ذكره ... ومستقصى إن شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به » .

وصارت هذه النسخة المهذبة ، هي المعروفة بسيرة ابن هشام . ولكن المراجع التاريخية الأخرى ، مثل الطبري ، حفظت الكثير من الأشياء التي اختصرها ابن هشام وصارت تكون إلى جانب النسخة المهذبة ، صورة واضحة المعالم عن جهد ابن اسحق في دراسة سيرة الرسول الكريم ، وما قدمه من خدمات في بناء صرح الدراسات التاريخية الإسلامية .

وإذا كانت الدراسات الخاصة بسيرة الرسول الكريم ، التي وضعها محمد بن اسحق قد لقيت نقداً شديداً من علماء المدينة باعتبارهم القوامة على هذا اللون من البحث التاريخي الإسلامي ، فإن مؤرخاً آخر ، خلف ابن اسحق ، استطاع أن ينال احترام

الجميع ، وهو محمد بن عمر الواقدى . وقد ولد هذا المؤرخ فى المدينة سنة ١٣٠هـ/٧٤٨م فى عهد الخليفة الأموى محمد بن مروان . ولقى الواقدى كثيراً من شيوخ المدينة وعلمائها ، وأخذ عنهم منهجهم ودراساتهم ، كما ظل أميناً فى نفس الوقت على تقاليدهم فى دراسة سيرة الرسول الكريم . وعبر الواقدى عن ذلك قائلا : « ما أدركت رجلا من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ، ولا مولى لهم إلا سألته : هل سمعت أحداً من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتل ؟ فإذا أعلمنى مضيت إلى الموضع فأعاينه » . وبذلك نبغ الواقدى فى المغازى ، وصار حجة فى سيرة رسول الله . وقال عن ذلك البغدادى « وهو ( أى الواقدى ) ممن طبق شرق الأرض وغربها ذكره ، ولم يخف على أحد عرف أخبار الناس أمره ، وسارت الركبان بكتبه فى فنون العلم من المغازى والسير والطبقات وأخبار النبى صلى الله عليه وسلم ، والأحداث التى كانت فى وقته وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم » .

وقابل الواقدى الخليفة هارون الرشيد ، الذى جاء إلى الحج سنة ١٧٠ هـ فقد سأل الخليفة عن رجل يستطيع أن يطوف به فى أرجاء المدينة « عارف بها ومشاهدها ، وكيف كان نزول جبريل عليه السلام على النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن أى وجهة كان يأتيه ، وقبور الشهداء » . وأشار الجميع على الخليفة بأن الواقدى هو ذلك الرجل .

وأرسل الخليفة هارون الرشيد وزيره يحى بن خالد البرمكى الذى كان فى صحبته إلى الواقدى ، وقال له يحى : «يا شيخ : إن أمير المؤمنين أعزه الله يريد أن تصلى عشاء الآخرة فى المسجد ، وتمضى معنا إلى هذه المشاهد فتوقفنا عليها» . وفعل الواقدى كل ما طلب منه ، ولم يترك موضعاً من المواضع ولا مشهداً إلا ومر بالرشيد عليه . وقد منح الخليفة هذا المؤرخ مبلغاً من المال صرفه فى قضاء ديون كانت عليه .

ولم تلبث الأحداث أن دفعت بالواقدى إلى الإنتقال إلى بغداد . وروى بنفسه سبب ذلك قائلا : كنت حناطاً ( بائع حنطة ) بالمدينة ، وفى يدى مائة ألف درهم للناس أضارب بها ، فتلفت الدراهم . ثم إن الدهر أعضنا ، فقالت لى أم عبد الله : يا أبا عبد الله ، ما قعودك ، وهذا وزير أمير المؤمنين قد عرفك وسألك أن تسير إليه حيث استقرت به الدر ، فرحلت من المدينة » .

وتابع الواقدى منذ انتقاله إلى بغداد الدراسة التاريخية ، مستفيداً مما آل إلى

هذه العاصمة الجديدة للدولة الإسلامية من نشاط علمى باهر . والمعروف أن أيام الخليفة المأمون خاصة اشتهرت بنشاط حركة الترجمة إلى اللغة العربية وازدياد وفود العلماء من شتى الأرجاء إلى بغداد ، والمساهمة فى النشاط العلمى الذى بدأ يدب بين جنباتها . وكان للواقدى شغف كبير بالإطلاع على ما دونه السلف من العلماء ، وتدوين ما يروق له منها من معلومات ، ويقال أنه كان عنده غلامان يعملان ليلا ونهاراً فى نسخ الكتب ، وأنه ترك عند وفاته ستمائة قمطر من الكتب يحتاج كل منهما إلى رجلين لحمله . وبرغم ضخامة مكتبة الواقدى فإنه يؤثر عنه قوله : ما من أحد إلا وكتبه أكثر من حفظه ، وحفظى أكثر من كتبى . ولم يكن فى هذا القول شىء من المبالغة لأن ما خلفه الواقدى من دراسة عن سيرة الرسول الكريم تشهد له بصدق قوله السالف الذكر .

وأطلق الواقدى على كتابه اسم « مغازى رسول الله » ، وهو يعتبر الصورة الأخيرة والكاملة من مراحل تطور دراسة السيرة النبوية فى القرنين الأول والثانى للهجرة ، والأساس المتين الذى قام عليه الصرح الشامخ لعلم التاريخ الإسلامى . ذلك أن الواقدى اطلع على جميع المدونات والروايات التى جمعها من سبقه من مؤرخى سيرة رسول الله ، ثم انفرد بوضع منهج خاص به ، كفل له أن ينعم بحق بمركز الصدارة بين مؤرخى سيرة رسول الله ، وأن يحفظ لكتابه البقاء كاملا ، كما تركه ، حتى الوقت الحاضر .

وأهم شىء قام به الواقدى هو أنه لم يقتصر على النقل عن الرواة ، وإنما دأب على زيارة أماكن مغازى الرسول ، وبخاصة ذات الأهمية فى حياة الرسول الشخصية . وأعجب المعاصرون بهذا العمل ، وأشاد به أحدهم ، وهو هارون القروى ، الذى قال : رأيت الواقدى بمكة ومعه ركوة ( أى إناء به ماء ) ، فقلت : أين تريد ، قال : أريد أن أمضى إلى حنين حتى أرى الموضع والوقعة .

وارتبط بمنهج الواقدى أمر هام انفرد به عن سائر أقرانه من السابقين له فى تدوين السيرة ، وهو وضع نظام متكامل للتواريخ . فكثير من المغازى التى تناولها أسلافه غير مؤرخة ، وبخاصة عند ابن اسحق نفسه ، صاحب السيرة . ولكن التزام الواقدى فى منهجه بالنظام المتكامل للتواريخ جعل كل مغازيه التى تناولها ذات تاريخ معين ومحدد كذلك ، وساعدت القارىء على تتبع الموضوع فى سهولة ويسر .

واتسم منهج الواقدى فى هذه المرحلة المبكرة من نشأة علم التاريخ الإسلامى بالقدرة على نقد الروايات ، مع ذكر آرائه وأفكاره عن الأخبار التى كان يسجلها . وجاء هذا العمل من جانب الواقدى خطوة تقدمية ، هيأت لكتابه المغازى مكانة تاريخية وعملية ممتازة فوق ما له من أهمية وسط المؤلفات التى تناولت سيرة الرسول الكريم . فكثيراً ما يقول الواقدى عقب بعض الروايات رأيه قائلا مثلا : « وهو المثبت » ، « والثابت عندنا » ، « ولا اختلاف عندنا » ، إلى غير ذلك من العبارات التى توضح رأيه الصريح فى تقييم تلك الأخبار .

ولم تقتصر أهمية كتاب «المغازى» للواقدى عند المنهج الممتاز ، ولكن من حيث مادة الكتاب كذلك . فاقتصرت المادة العلمية على الفترة المدنية ، أى منذ هاجر النبى إلى المدينة ، ثم بيان ما قام به من غزوات فى سبيل نشر الدين الإسلامى حتى وفاته . واستهل الواقدى كتابه بمقدمة حدد فيها اليوم الذى هاجر فيه الرسول إلى المدينة ، ثم ذكر قائمة طويلة بالمصادر الأساسية للكتاب ، وهى تضم أسماء الرجال الذين اعتمد عليهم الواقدى فى نقل مادته العلمية . ثم أورد بعد ذلك قائمة أخرى بمغازى رسول الله وسراياه ، واحدة واحدة ، مع تحديد تواريخ كل غزوة منها تحديداً دقيقاً . واختتم الواقدى هذه القائمة الثانية بملخص جيد لجهاد الرسول قائلا : « فكانت مغازى النبى صلى الله عليه وسلم التى غزا بنفسه سبعاً وعشرين غزوة ، وكان ما قاتل فيها تسعاً : بدر القتال ، وأحد ، والمريسيع ، والخندق ، وقريظة ، وخيبر ، والفتح وحنين والطائف ، وكانت السرايا سبعاً وأربعين سرية .

وهذه المقدمة أشبه بالفهرس التفصيلى فى الكتب الحديثة ، تعطى صورة صادقة عن محتويات الكتاب ، وتساعد القارىء على تتبع ما جاء فيه من دراسات دون جهد أو عناء . ذلك أن الواقدى قام بعد هذه المقدمة بعرض دراسة تفصيلية لكل غزوة من الغزوات التى سبق أن أجمل ذكرها فى المقدمة ، وأوردها حسب تسلسلها التاريخى ، وبأسلوب موحد . فيذكر أولا اسم الغزوة وتاريخها والمستخلف على المدينة . ثم يروى سائر التفاصيل الحربية والجغرافية وغيرها من الأخبار التى تتصل بالغزوة بما يوفيها حقها من الدراسة والوضوح . وإذا كانت الغزوة قد نزل فيها آيات كثيرة من القرآن ، فان الواقدى يفردها وحدها مع تفسيرها ، ويضعها فى نهاية أخبار هذه

الغزوة . وفى المغازى الهامة أيضاً يذكر الواقدى أسماء الذين استشهدوا أو قتلوا فيها ومن شهدها كذلك .

وجاءت هذه الطريقة التى اتبعها الواقدى فى دراسته للمغازى سبيلا جعل من المغازى الهامة فصولا قائمة بنفسها ، توضح مراحل جهاد الرسول الكريم فى سبيل نشر الدين الإسلامى ، أما ما عدا ذلك من الغزوات الصغرى والسرايا فهى مقدمات أو نتائج للفصول الكبرى ، أشبه بالحلقات التى بين المواضيع الرئيسية التى اشتمل عليها الكتاب ، وتجعل منه وحدة متكاملة .

ويصور كتاب « المغازى » للواقدى خمسة جوانب كبرى ، أو فصول رئيسية من سيرة الرسول الكريم . والفصل الأول منها يوضح جهاد الرسول ضد قريش ، والفصل الثانى يتناول نشاط النبى من أجل القضاء على اليهود وسلطانهم ، والفصل الثالث يشرح سياسة الرسول فى سبيل هدم العصبية القبلية وما تبع ذلك من فتح مكة ، وذكر فى القسم الرابع كفاح النبى من أجل تأمين الدعوة الإسلامية خارج شبه الجزيرة العربية ، وما ارتبط بذلك من وصف لأهم ما حدث فى عام الوفود . وأخيراً أورد الواقدى فى الشطر الخامس حجة الوداع ، ثم وفاة الرسول الكريم .

وتعتبر الفصول الخمسة السالفة الذكر مثالا رائعاً لنشاط الواقدى ، ونجاحه فى توضيح سيرة الرسول الكريم ، وبخاصة الجوانب الشخصية من سيرته العطرة . وتجلت قدرة هذا المؤرخ فى تلك السبيل فى القسم الخامس ، عند ما تنال أعمال الرسول فى حجة الوداع ، إذ شرح كيف كان النبى المثل الأعلى أمام الألوف المؤلفة التى خرجت للحج معه . وأصبح كتاب «المغازى» للواقدى أكمل وأتم مصدر محايد لتاريخ النبى فى المدينة ، وأوفى مرجع أيضاً لجميع مظاهر الحياة فى المجتمع الإسلامى فى الفترة بين هجرة الرسول إلى المدينة ووفاته بها .

ويختتم كتاب الواقدى مرحلة هامة من مراحل تدوين التاريخ الإسلامى بدأها مؤرخو سيرة الرسول الكريم . وصارت أعمال أولئك المؤرخين الحجر الأساسى للدراسات التاريخية الإسلامية ، والتى شيدت عليها سائر المؤلفات الكبرى التى حفلت بها الدولة الإسلامية على مر العصور ، من القرن الأول الهجرى إلى الوقت الحاضر .